بسم الله الرحمن الرحيم

٥٢ ـ سورة الطور

قال الهيثميّ : سميت به لأنه لما تضمن تعظيم مهبط الوحى ، فالوحى أولى بالتعظيم ، فيعظم الاهتمام بالعمل، لاسيما وقد عظم مصعد العمل وثمرته . وهذا من أعظم مقاصد القرآن.

وهى مكية ، وآيها تسع وأربعون .

روى الشيخان(١) ومالك عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبىّ ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه .

وروى البخارىّ(٢) عن أم سلمة قالت : شكوت إلى رسول الله ﷺ إنى أشتكى ! فقال : طوفى من وراء الناس وأنت راكبة . فطفت ورسول الله ﷺ يصلى إلى جنب البيت، يقرأ بالطور وكتاب مسطور .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٢ ـ سورة والطور ، ١ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٤٦٥ . وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٧٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٢ ـ سورة والطور ، ١ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٣٠٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلطُّورِ)

[٢] (وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ)

[٣] (فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ)

[٤] (وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ)

[٥] (وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ)

[٦] (وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ)

« وَٱلطُّورِ » أى طور سينين ، جبل بمَدْيَنَ، سمع فيه موسى، صلوات الله عليه، كلام الله تعالى ، واندك بنور تجليه تعالى .

« وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ » أى مكتوب . والمراد به القرآن ، أو ما يعمّ الكتب المنزلة .

« فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ » متعلق بـ (مسطور) . أى وكتاب سطِّر فى ورق منشور يقرأ على الناس جهاراً . و (الرق) الصحيفة أو الجلد الذى يكتب فيه .

« وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ » أى الذى يعمر بكثرة غاشيته . وهو الكعبة المعمورة بالحجاج والعمّار والطائفين والعاكفين والمجاورين. وروى أنه بيت فى السماء بحيال الكعبة من الأرض. يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبداً . والأول أظهر ، لأنه يناسب ماجاء فى سورة (التين) من عطف (ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ) على (طُورِ سِينِينَ) والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، لتشابه آياته ، وتماثلها كثيراً ، وإن تنوعت بلاغة الأسلوب .

قال المهايميّ : أورده بعد الكتاب الذى هو الوحى ، لأنه محل أعظم الأعمال المقصودة منه ، ولأنه مظهر الوحى ، ومصدر الرحمة العامة المهداة للعالمين ، ولأنه من أجلّ الآيات وأكبرها . كما دل عليه آية[1] (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) وآيات أخر .

« وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ » يعنى السماء . وجعلها سقفاً ، لأنها للأرض كسماء البيت الذى هو سقفه .

« وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ » أى المملوء ، أو الذى يوقد ، أى يصير ناراً ، كقوله[2] (وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ) قال ابن[3] جرير : والأول أولى . أعنى : أن معناه البحر المملوء المجموع ماؤه بعضه فى بعض ، لأن الأغلب من معانى (السَّجْر) الإيقاد أو الامتلاء . فإذا كان البحر غير موقد اليوم ، ثبتت له الصفة الثانية وهو الامتلاء ، لأنه كل وقت ممتلئ . ولا تنس ما قدمنا فى أوائل (الذَّارِيَاتِ) من أن هذه الأقسام كلها دلائل أخرجت فى صورة الأيمان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ)

[٨] (مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ)

[٩] (يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا)

[١٠] (وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا)

[١١] (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)

[١٢] (ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ)

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] . (٢) [٨١ / التكوير / ٦] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٩و٢٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

[١٣] (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا)

[١٤] (هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ)

[١٥] (أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ)

[١٦] (ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ » أى يدفعه عن المكذبين، فينقذهم منه إذا وقع . « يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا » أى تضطرب. « وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا » أى تسير عن وجه الأرض فتصير هباءً منثورًا « فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » أى بالحق، الجاحدين له « ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ » أى من الاعتساف والاستهزاء « يَلْعَبُونَ » أى بآيات الله ودلائله « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا » أى يدفعون إليها بعنف . يقال : دعَعْت فى قفاه ، إذا دفعته فيه بإزعاج « هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ » أى يقال لهم ذلك « أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ » أى الذى وردتموه الآن . والفاء للسببية ، لتسبب هذا عما قالوه فى الوحى « أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ » أى كما كنتم لاتبصرون فى الدنيا . قال الزمخشرىّ : يعنى أم أنتم عمى عن المخبر عنه ، كما كنتم عمياً عن الخبر . وهذا تقريع وتهكم . « ٱصْلَوْهَا » أى : ذوقوا حرّ هذه النار « فَٱصْبِرُوٓا۟ » أى على ألمها ، « أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ » أى الأمران. الصبر وعدمه سواء عليكم « إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى لاتعاقبون إلا على معصيتكم فى الدنيا لربكم ، وكفركم به .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ...) الخ؟ قلت لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع ، لنفعه فى العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير . فأما الصبر على العذاب الذى هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ)

[١٨] (فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ)

[١٩] (كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٠] (مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ، وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ)

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ » أى متلذذين بما لديهم من الفواكه الكثيرة « وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ » جمع (عيناء) ، وهى الواسعة العين ، فى حسن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ، كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

« وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ » أى اقتفت آثارهم فى الإيمان والعمل الصالح « أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » أى فى الجنات والنعيم . والخطاب ، لما كان مع الصحابة رضى الله عنهم ، وهم واثقون بوعد الله ، تم لهم البشارة بالموعود به ، بأنه ينال ذريتهم أيضاً ، إن اتبعوا آباءهم بإحسان . هذا هو المراد من الآية . وأما من قال فى معناها : إن المؤمن ترفع له ذريته فيلحقون به ، وإن كانوا دونه فى العمل ، فلا تقتضيه الآية تصريحاً ولا تلويحاً « وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ » أى وما نقصناهم من ثواب عملهم شيئاً « كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » أى بما عمل من خير أو شر مرتهن به ، لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، وإنما يعاقب بذنب نفسه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)

[٢٣] (يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ)

[٢٤] (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ)

« وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » أى زدناهم وقتاً بعد وقت ، ما ذكر . « يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا » أى يتعاطون فيها كأس الشراب ويتجاذبونها « لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ » أى لا يتكلمون فى أثناء الشرب بسقط الحديث وباطله ، ولا يفعلون مايؤثم به فاعله ، كما كان فى الدنيا . « وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ » أى مصون فى كِنّ ، فهو أنقى له ، وأصفى لبياضه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

[٢٦] (قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ)

[٢٧] (فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ)

[٢٨] (إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ)

« وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » أى يتجاذبون أطراف الأحاديث المفضية إلى شكر المنعم ، والتحدث بالنعمة ، وذلك فى مساءلة بعضهم بعضاً عما مضى لهم فى الدنيا . « قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ » أى خائفين من عذاب الله « فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ » يعنى : عذاب النار . وأصل (السَّمُومِ) الريح الحارّة التى تدخل المسامّ ، فسميت بها نار جهنم ، لمشابهتها لها ، وإن كان وجه الشبه فى النار أقوى ، لكنه

فى ريح السموم لمشاهدته فى الدنيا ، أعرف . « إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ » أى نعبده مخلصين له الدين « إِنَّهُو هُوَ ٱلْبَرُّ » أى المحسن بمن دعاه « ٱلرَّحِيمُ » أى لمن عبده وخافه بالهداية والتوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)

« فَذَكِّرْ » أى من أرسلت إليهم وعظهم « فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ » أى تتكهن فيما تدعو إليه ، « وَلَا مَجْنُونٍ » أى له رئىّ من الجن يخبر عنه قومه ما أخبر عنه ، كما يعتقده العرب فى بعضهم ، ولكنك رسول الله حقًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ)

[٣١] (قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ » أى حوادث الدهر أو الموت ، لأن (المنون) قد يراد به الدهر ، وربيه صروفه . وقد يراد به الموت ، وربيه نزوله . « قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ » أى : حتى يأتى أمر الله فيكم . والأمر للتهكم بهم والتهديد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

[٣٣] (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ، بَل لَّا يُؤْمِنُونَ)

[٣٤] (فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ)

« أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ » أى عقولهم بهذا التناقض فى القول ، « أَمْ » أى بل

« هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » أى مجاوزون الحد فى العناد، مع ظهور الحق « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ » أى اختلق هذا القرآن من عندنفسه ، « بَل لَّا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا حسداً وتقليداً، فلذلك يرمونه بتلك الفرى. « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ » أى فى الهداية بذاك الأسلوب الذى ملك ناصية الفصاحة والبلاغة، كقوله[1] (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ) . « إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ » أى فى زعمهم ، فإنهم من أهل لسان الرسول صلوات الله عليه ، ولا يتعذر عليهم مضاهاة بعضهم لبعض ، فى ميدان التساجل والتراسل.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ)

[٣٦] (أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ، بَل لَّا يُوقِنُونَ)

[٣٧] (أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ)

[٣٨] (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ)

[٣٩] (أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ)

[٤٠] (أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ)

[٤١] (أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)

[٤٢] (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ، فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ)

[٤٣] (أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ، سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ » قال ابن جرير[2] : أى أخلق هؤلاء المشركون من غير

(١) [٢٨ / القصص / ٤٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

آباء ولا أمهات ، فهم كالجماد لا يعقلون ، ولا يفهمون لله حجة ، ولا يعتبرون له بعبرة، ولا يتعظون بموعظة . وقد قيل : إن معنى ذلك أم خلقوا لغير شيء ، كقول القائل : فعلت كذا وكذا من غير شيء ، بمعنى : لغير شيء « أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ » أى أنفسهم ، أو هذا الخلق، فهم لذلك لا يأتمرون لأمر الله ، ولا ينتهون عما نهاهم عنه ، لأن للخالق الأمر والنهى « أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ » أى بوعيد الله ، وما أعدّ لأهل الكفر به من العذاب فى الآخرة ، فلذلك فعلوا ما فعلوا . « أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ » أى خزائن رزقه ، فهم لاستغنائهم معرضون « أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ » أى الجبابرة المتسلطون « أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ » أى مرتقى إلى السماء « يَسْتَمِعُونَ فِيهِ » أى الوحى ، فيدعون أنهم سمعوا هنا لك من الله أن الذى هم عليه حق . « فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ » أى بحجة واضحة تصدق دعواه « أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ » أى حيث جعلوا ، لسفاهة رأيهم، الملائكة إناثاً ، وأنها بناته تعالى ، مع أنه [1] (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) « أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا » أى أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله تعالى، « فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ » أى من التزام غرامة « مُّثْقَلُونَ » أى من أدائه، حتى زهّدهم ذلك فى اتباعك « أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ » أى منه ما شاءوا ، وينبئون الناس عنه بما أرادوا « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا » أى بالرسول وما جاء به ، « فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ » أى المكور بهم دونك ، فثق بالله ، وامض لما أمرك به « أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ » أى له العبادة على جميع خلقه « سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى : تنزيهاً له عن شركهم ، وعبادتهم معه غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ)

« وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ » هذا جواب لمشركى

(١)[١٦ / النحل / ٥٨] .

قريش الذين كانوا يستعجلون العذاب ، ويقترحون الآيات ، كقولهم[1] (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا) إلى قوله (أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا).

قال الزمخشرى: يريد أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم، لو أسقطناه عليهم لقالوا: هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض ، يمطرنا ، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ)

[٤٦] (يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

« فَذَرْهُمْ » أى يخوضوا ويلعبوا ، ويلهيهم الأمل ، « حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ » أى يموتون « يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا » أى لايدفع عنهم مكرهم من عذاب الله ، شيئاً « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ » أى دون يوم القيامة ، وهو إما عذاب القبر، أو القحط، أو النوازل التى تذهب بأموالهم وأنفسهم ـ أقوال للسلف ـ واللفظ صادق بالجميع « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنة الله فى أمثالهم من الفجرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)

« وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » أى الذى حكم به عليك، وامض لأمره ونهيه، وبلغ رسالاته.

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠ـ٩٢] .

« فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » قال ابن جرير [١] : أى بمرأى منا ، نراك ونرى عملك ، ونحن نحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين .

وقال الشهاب : يعنى أن العين ، لما كان بها الحفظ والحراسة ، استعيرت لذلك ، وللحافظ نفسه ، كما تسمى (الربيئة) عيناً ، وهو استعمال فصيح مشهور . ونكتة جمع (العين) هنا وإفرادها فى قصة الكليم ، عدا عن أنه جمع هنا لما أضيف لضمير الجمع ، ووحد ثمة لإضافته لضمير الواحد ، هو المبالغة فى الحفظ ، حتى كأن معه جماعة حفظة له بأعينهم ، لأن المقصود تصبير حبيبه على المكايد ومشاقّ التكاليف والطاعة . فناسب الجمع ، لأنها أفعال كثيرة ، يحتاج كل منها إلى حارس بل حراس . بخلاف ماذكر هناك من كلاءة موسى عليه السلام «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ » أى من منامك .

روى الإمام أحمد [٢] عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله ﷺ قال : من تعارّ من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال: رب اغفر لى (أوقال : ثم دعا) استجيب له . فإن عزم فتوضأ ثم صلى ، قبلت صلاته . وأخرجه البخارىّ [٣] فى صحيحه وأهل السنن .

وورد من أذكار الاستيقاظ من النوم قول : سبحان الله وبحمده ، سبحان القدوس . و : لاإله إلاأنت ، سبحانك اللهم أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك . اللهم زدنى علماً . ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

وقيل : حين تقوم إلى الصلاة ـ روى مسلم [٤] فى صحيحه عن عمر ؛ أنه كان يقول فى

(١) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣١٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ٢١ ـ باب حدثنا على بن عبدالله ، حديث رقم ٦٣٤

(٤) أخرجه فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .

ابتداء الصلاة : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك . ورواه أحمد وأهل السنن عن أبى سعيد وغيره ، عن النبىّ ﷺ ؛ أنه كان يقول ذلك . وعن مجاهد : حين تقوم من كل مجلس . وكذا قال عطاء وأبو الأحوص .

روى أبو هريرة [1] عن النبى ﷺ أنه قال : من جلس فى مجلس ، فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أستغفرك وأتوب إليك ـ إلا غفر الله له ما كان فى مجلسه ذلك ـ رواه الترمذىّ وصححه ، وكذا الحاكم.

وأخرج أبو داود [2] والنسائىّ والحاكم عن أبى برزة الأسلمىّ قال : كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة ، إذا أراد أن يقوم من المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . فقال رجل : يارسول الله ! إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى ؟ ! قال : كفارة لما يكون فى المجلس !

وقد أفرد الحافظ ابن كثير لهـذا الحديث جزءاً على حدة ، ذكر فيه طرقه وألفاظه ، وعلّله ، فرحمه الله .

ولايخفى أن لفظ الآية يصدق بالمواضع المذكورة كلها ، وتدل الأحاديث المذكورة على الأخذ بعمومها ، فإن السنة بيان للكتاب الكريم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ)

« وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ » أى اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة بالليل ، كما قال تعالى [3] (وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٤٢٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ).

(٢) أخرجه فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٢٧ ـ باب فى كفارة المجلس ، حديث ٤٨٥٩

(٣) [١٧ / الإسراء / ٧٩] .

وقد روى فى أذكار الليل من التسابيح ما هو معروف فى كتب الحديث . وقد جمعت ذلك معرّى عن أسانيدها فى كتابى (الأوراد المأثورة) .

« وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ » أى : وسبحه وقت إدبارها ، وذلك بميلها إلى الغروب عن الأفق ، بانتشار ضوء الصبح . وقد عنى بذلك إما فريضة الفجر أو نافلته ، أو ما يشملهما . قال قتادة : كنا نحدّث أنهما الركعتان عند طلوع الفجر . وقد ثبت فى الصحيحين[1] عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لم يكن رسول الله ﷺ على شىء من النوافل ، أشدّ تعاهداً منه على ركعتى الفجر . وفى لفظ لمسلم[2] : ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها .

قال الزمخشرىّ : وقرىء (وَأَدْبَـٰرَ) بالفتح ، بمعنى فى أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) عن الكرمانىّ : إن بعض الفقهاء استدل به على أن الإسفار بصلاة الصبح أفضل لأن النجوم لا إدبار لها ، وإنما ذلك بالاستتار عن العيون . انتهى . وهو استدلال متين .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ٢٧ ـ باب تعاهد ركعتى الفجر ، حديث ٦٣٨ .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٩٤ و ٩٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٩٦ (طبعتنا) .